باب الكتب

مخطوط كتاب الفاضل في صفة الادب الكامل

لمحمد بن احمد بن اسحاق المعروف بالوشاء

يوسف يعقوب مسكوني

١ ـ الوشاء :

الوشاء من رجال القرن الثالث والرابع الهجريين ومن مؤرخي وأدباء القرنين المذكورين ناهيك عن كونه من النحاة البارزين ، له صولات وجولات في التاريخ والأدب والنحو ، إذ ترك لنا تراثاً خالداً ، يمتاز بالدقة والذوق في التأليف إلا أنه ويا للأسف لم يصل إلى أيدينا كل ما خلفه لنا من تراث وأثر ، في هذه الميادين من العلم والمعرفة ، فلم يصل إلى أيدينا من مخلفاته إلا النزر اليسير ، وقد ضاع معظم ذلك التراث الغني بالمعلومات التأريخية والأدبية ، وقد عني العلماء من شرقيين وغربيين في هذا القليل الذي وصل إلى أيدينا ، وقد ترجمه عدة أدباء ومؤرخين كأبن النديم صاحب الفهرست وابن الجوزي صاحب المنتظم وياقوت الحموي في إرشاد الاريب إلى معرفة الأديب ، أي معجم الأدباء

وابن الأنباري في نزهة الألباء في طبقات الأدباء والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ثم نقل عنهم كثيرون كالسيوطي في بغية الوعاة ، والزركلي في الاعلام وإسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين لأسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، ويوسف اليان سركيس في معجم المطبوعات والمستشرق الالماني بروكلمان وغيرهم وغيرهم ، وأوسع من تدرج في ترجمته ياقوت الحموي صاحب معجم الأدباء حيث قال بالنص : « محمد بن أحمد بن أسحاق بن يحيي الوشاء أبو الطيب النحوي : من أهل الأدب حسن التصنيف مليح التأليف ، أخباري وقال أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي في تأريخه : مات أبو الطيب الوشاء سنة ٣٢٥ هـ . وله ابن يعرف بابن الوشاء . حدّث الوشاء عن أحمد بن عبيد بن ناصح والحارث بن أسامة وثعلب والمبرد . قال الخطيب : روت عنه منية جارية خلافة أم ولد المعتمد . قال ابن النديم وكان نحوياً معلماً لمكتب العامة وكان يعرف بالأعرابي وله من الكتب : كتاب مختصر في النحو ، وكتاب الجامع في النحو ، وكتاب في المقصور والممدود ، وكتاب المذكر والمؤنث ، وكتاب الفرق ، وكتاب خلق الانسان ، وكتاب خلق الفرس ، وكتاب المثلث ، وكتاب اخبار صاحب الزنج ، وكتاب الزاهر في الأنوار والزهر ، وعلق مرغليوث في الحاشية من طبعته : إن القفطي سماه (كتاب الزاهر والازهار) كما ذكر له كتاباً آخر سماه (زهرة الرياض) وقال : هو كبير في عدة مجلدات ملكت نسخة قيل إنها بخطه في عشر مجلدات تشتمل على أنواع وأبواب من المنظوم والمنثور في حسن اختيار ، تدل على كثرة الاطلاع والبحث ، وكتاب السلوان وكتاب المذهب ، وكتاب الموشح ، وكتاب سلسلة الذهب ، وكتاب أخبار المتظرفات ، وكتاب الحنين إلى الاوطان ، وكتاب حدود الطرف الكبير ، وعلق مرغليوث في طبعتـه لمعجم الأدباء له (الظرف) وفي إنباه الرواة (كتاب الطب الكبير) ورواية الفهرست ص ٨٥ (الطرف) وكتاب الموشا (كذا) « أي الموشى » ثم قال ياقوت : « نقلت من خط أبي عمرو محمد بن أحمد النوقاتي أنشدني

الشافعي أحمد بن محمد انشدني أحمد بن محمد بن حفص أنشدني أبو الطيب الوشاء لنفسه :

لا صبر لي عنك سوى أنني | أرضى من الدهر بما يقدر
من كان ذا صبر فلا صبر لي | مثلي عن مثلك لا يصبر

ومن خطه واسناده للوشاء :

يا من يقوم مقام الروح في الجسد | لا تحسبني خلي البال من سهد
حاشاك من أرقي حاشاك من قلقي | حاشاك من طول ما ألقى من الكمد
حزني عليك جديد لا نفاد له | أوهى فؤادي وأوهى عقدة الجلد
والصبر عنك قليل مضرم قلقا | بين الضلوع كصبر الأم عن ولد

(معجم الأدباء لياقوت الحموي ط . مرغليوث ج ٦ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ سنة ١٩٣٠) .

أما السيوطي في بغية الوعاة فلم يزد على ياقوت شيئاً سوى أنه ذكر للوشاء كتاب خلق العرش ولعله محرف كتاب خلق الفرس المذكور آنفاً وبعد أن أورد البيتين الأولين الآنفي الذكر زاد أنه روى عن عبد الله بن أسعد الوراق وطبقته (بغية الوعاة للسيوطي ص ٧ ـ ٨ بمطبعة السعادة) اما ابن الأنباري فلم يذكر له أي كتاب بل اكتفى بترجمة مختصرة للغاية ، ومثله فعل صاحب هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المعاصرين إسماعيل باشا البغدادي إلا أنه ذكر معظم تصانيفه (ج ٢ ص ٢٤ ـ ٢٥ طبعة استانبول سنة ١٩٥٥) وذكر له الزركلي صاحب الاعلام في ترجمته أنه من أهل بغداد ولا يعرف مولده ، وانما يذكر وفاته فقط سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٧ م) وذكر له كتاب الفاضل من الأدب الكامل وهو مخطوط ، وهو الكتاب الذي نحن بصدده والذي نحتفظ به في خزانتنا في جزأين كما سيأتي ذكره وتفصيله ، كما انه ذكر ورود اسمه في تأريخ بغداد للخطيب البغدادي أنه محمد بن اسحاق . (ج ١ ص ٢٥٣) . وكذلك ذكر كتاب الموشى المطبوع عدة طبعات بأن ناشره أضاف إليه كلمة « في الظرف والظرفاء » ثم قال : إنه

كان يعرف بابن الوشاء (الاعلام ج ٦ ص ١٩٩) وبروكلمان نموذج ٧٩ و Brock. S. I : 189

ومثلهم فعل صاحب معجم المطبوعات يوسف إليان سركيس وقال : له من التصانيف ما يقارب العشرين كتاباً منها زهرة الرياض ، عشرة مجلدات تشتمل على أنواع ، وأبواب من المنظوم والمنثور في حسن اختيار تدل على كثرة الاطلاع والبحث . ثم ذكر كتاب الموشى وهو الكتاب المطبوع عدة طبعات أشهرها وهي المفهرسة نسخة ليدن المطبوعة سنة ١٣٠١ هـ (١٨٨٦ م) باعتناء رودلف برونو وطبعات أخرى مصرية قديمة وحديثة (معجم المطبوعات ص ١٩١٩) .

وممن ذكر كتاب الفاضل هذا كتاب كشف الظنون ولكنه ذكر بعنوان محرف ولم نعثر عليه إلا أن ناسخ هذه المخطوطة قد دون على أول صفحة من المخطوطة أن ذكره قد وقد ورد في كشف الظنون للحاج خليفة المعروف بكاتب جلبي كما ذكر الناسخ أيضاً اسم كتاب آخر للمؤلف الوشاء في نفس الصفحة بقوله من خطه : « لمؤلف هـــذا الكتاب كتاب آخر اسمه كتاب (الابتهاج في الصبر المؤدي إلى جميل الراحة والانفراج) وذكرت مجلة لغة العرب التي كان يصدرها الأب انستاس ماري الكرملي ببغداد في المجلد التاسع لسنة ١٩٣١ وهو المجلد الاخير لصدورها هذه المخطوطة دون معرفة مؤلفها بعنوان (كتاب نفيس في البلاغة مجهول المؤلف) وبعد سرد البحث فيه وعن ابوابه قالت المجلة : (هل من مطلع بصير يفيدنا عن اسم مؤلف هذا الكتاب الجليل ؟) ... وقـــد أجاب الدكتور مصطفى جواد بانه للوشاء بقوله : « بعد أن طالعنا كتباً عديدة لنتبيّن اسم صاحب هـــذا الكتاب اصبنا انه محمد بن اسحاق بن يحيى النحوي المعروف بالوشاء) — راجع لغة العرب ج ٩ ص ٢٨٢ ، ٣٧٧ ، ٦٨٤ — .

أما معنى الوشاء فقد جاء في كتاب سفينة البحار في مدنية الحكم والآثار للمحدث المحقق الشيخ عباس القمى في جزئه الثاني في باب الواو بعد الشين وفي ترجمة الحسن بن

علي الوشاء ص ٦٥٦ ما نصه : « ... أقول : الوشاء بالشد والمد بياع الثوب الوشي أي المنقوش أو هو الناقش والمراد منه الحسن بن علي بن زياد الوشاء البجلي الكوفي من أصحاب الرضا (ع) ... إلى آخر الحكاية » وقد يكون الوشاء ممن امتهنوا هذه المهنة ولعله سمى كتابه (الموشى) بهذا العنوان تخليداً لمهنته هذه . والوشي والتطريز والنقش من الفنون المعروفة إلى الآن .

٢ ـ المخطوطة :

تحتوي هذه المخطوطة على ثلاثة كتب مستقلة قائمة بذاتها أولها كتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل بحسب ما ذكر الناسخ في ختام الجزء الثاني منه ، وهو في جزأين منفصلين أما الكتاب الثاني فهو بعنوان (كتاب وصايا الملوك وأبناء الملوك من أولاد الملك قحطان ابن هود النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو في ثلاثة أجزاء والثالث (كتاب حرب البسوس بين بكر وتغلب) وهو في ثلاثة أجزاء وملحق في آخر المخطوطة كتاب في جزء واحد عنوانه : (خبر الحقة ابنة النعمان واستجارتها ببني شيبان) ، والمخطوطة كلها من خط يد واحدة وتنسيق واحد ، وخطها واضح جداً وعناوين الفصول والمواضيع مكتوبة بالخط الأحمر ، والكتابة بالحبر الاسود الثابت الجيد . وجاء في نهاية الجزء الأول من الفاضل هذه العبارة : تم الجزء الأول من جزئين من كتاب الفاضل بتوفيق الله وعونه ولطفه ويتلوه الجزء الثاني من جزئين من كتاب الفاضل والحمد لله » : وجاء في نهاية الجزء الثاني هذه العبارة : تم الجزء الثاني من جزئين من كتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل : وجاء في ختام الجزء الثالث من كتاب وصايا الملوك وأبناء الملوك من ولد قحطان بن هود صلى الله عليه وسلم هذه العبارة : وبه تمام الكتاب وذلك وقت الضحى من يوم الاربعاء السادس عشر من شهر شوال المكرم لسنة احدعشر (كذا) ومائتين بعد الألف من الهجرة

النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والتحية ، بخط محمود بن عثمان الشهير بخطيب النعمانية عفى الله عنه ورزقه زيارة أشرف البرية وسائر المسلمين من الأمة المحمدية آمين يا رب العالمين : ثم دون في أسفل هذه الصفحة هذه العبارة : « قد بلغ المقابلة بقدر الطاقة بمطالعة أفقر الورا (كذا) لعفو ربه تعالى محمد كاتب يكجيريان بغداد . وفي نهاية المخطوطة أي في نهاية ملحق حرب البسوس وردت هذه العبارة وهي : « تم الكتاب بعون الله وحسن توفيقه سنة ١٢١١ » وهي لا شك أنها سنة ١٢١١ هـ الموافقة سنة ١٧٩٦ — ١٧٩٧ م . قلت وجامع النعمانية جامع صغير يلاصق الاعدادية المركزية ويقابل البريد المركزي ببغداد اليوم اما مساحة المخطوط فهي ٢٤ سنتيمترا طولا و ١٥ سنتيمترا عرضاً وعدد سطور كل صفحة خمسة وعشرون سطراً بالخط الواضح الجيد .

مقدمة كتاب الفاضل

قال المؤلف بعد البسملة : « أطال الله في ظل أفياء السلامة بقاك ، وحجب عن غير نوايب الدهر نعماك ، وجعلك لمتوخى سبوغ النعم معقلاً ، ولآمال مؤمل الافضال موئلاً ، ومتعك بوفاء عهود أودائك ، وبلغك الغاية من تأميل ذوي المودة من أوليائك . قرأت متعك الله بالسلامة ، وحباك بالزلفة والكرامة ، ما كنت تشكوه إلينا من قلة الثقة بأصحابك ، وما تحمل من معاناة تلون الصديق ، وسرعة ملل الرفيق ، وتفه رذالة الحميم ، وشراسة خلق النديم ، وسألت أن أختار لك نديماً ، متندياً كريماً ، تستعين به على طوارق غمومك ، وتنفي به متكاثف همومك ، وتفزع إليه من سهرك ، وتدعو به عند ضجرك ، وتعتمد عليه في أمورك ، وتستعده لسرورك ، فرأيت استفراغ المجهود في طلب ذلك عذراً ، ووجدان من ارتضى خلايقه لمنادمتك عسراً ، وأحببت أن أحبوك بنديم يروقك منظره ، ويسرك مخبره ، وتطيب مشاهده ، وتكثر محامده ، وتقل ذنوبه ، وتفتقد عيوبه ، إذا

دعوته أسرع ، وإذا حدثك أمتع ، وإذا سألته أجاب ، وإذا تكلم أصاب ، وإذا استرفقته رفق، وإذا استنطقته نطق ، لا يرهقك عسراً ، ولا يحملك صبراً ، يلقي عنك مؤونة الحشمة، أميناً على المال والحرمة ، أستدعي به منك دوام الاخاء ، وأجيب به عليك جميل الثناء ، فصنعت لك كتاباً في البلاغة والايجاز والبراعة ، ضمنته موجزات الخطب ، ومنتخب بلاغات العرب، مما حفظ من ملح كلامها ، ومختصر ألفاظها ، وموجز خطبها ، وبراعة أدبها، ونادر خطابها ، ومسرع جوابها ، ومعجب قرايحها ، ومعجز بدايهها ، إلى شيء من بلاغة البلغاء ، وفصاحة الفصحاء ، وجواب الأدباء ، وايجاز الخطباء ، ومحاورة الخلفاء ، وتهادي الظرفاء ، ومكاتبة الأمراء ، ونوادر الشعراء ، وحصافة ذوي الألباب ، وثقافة أذهان الكتاب ، ورصافة عقول النساء ، وتكامل أدب الإماء - أي فطانة أدبهن - ونظمته بما انتظم ، من الحكم المحفوظة عن حكماء العجم ، ووصايا المحتضرين ، وحكم المجانين ، وقدمت ذكر براعة العرب على غيرها من الناس ، لتقدمها في الفضل على سائر الأجناس ، ولأن الله تعالى قد شرفها برسوله ، وفضلها بتنزيله ، وخصها بالخطاب المعجز ، واللفظ الموجز ، والسؤال الشافي ، والجواب الكافي ، فهم أمراء الكلام ، ومعادن العلوم والأحكام ، منهم ترد البلاغة ، واليهم ترجع البراعة ، وعنهم تؤخذ الفصاحة ، والناس بلغتهم مقتدون ، ولآثارهم متبعون ، وترجمته بكتاب الفاضل لفضله على كل كتاب كامل ، فأرسلت به اليك لا ممتناً به عليك ، لتجعله بدلاً من الجليس ، وخلفاً من الأنيس . وقد صدرت أمام ما ضمنت لك من ذلك فصلاً ضمنته كلاماً جزلاً ، في صفة أنسية البلاغة ، وفضل الفصاحة والبراعة ، فقف على ما فيه من فضله ، وبينت من معرفة مقادير نيله ، لتعلم إذا أنعمت الاختيار ، أني أحسنت لك الاختيار إن شاء الله تعالى .

هذه هي مقدمة الكتاب ومن قراءتها نستدل على الغاية التي وضع المؤلف من أجلها الكتاب ، وهو كتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل وهو ليس كتاب الفاضل للعلامة

المبرد الذي سبق أن حققه وطبعه الأستاذ الكبير عبد العزيز الميمني صاحب التحقيقات من المخطوطات العديدة الذي زار العراق سنة ١٩٥٨ م في طريق عودته من بلاد المغرب وتونس ومصر الى بلدته كراجي في باكستان .

أما أبواب وفصول الجزء الأول من الكتاب فعناوينها كما يأتي : ـ

١ ـ باب في صفة البلاغة وفضل الفصاحة والبراعة .

٢ ـ » البلاغة في الخطابة من أهل الفصاحة والدراية .

٣ ـ » من أدركه الحصر في خطبته فأحسن العبارة في حجته .

٤ ـ » بلاغات الوفود في حسن البديهة والتسديد ،

٥ ـ » البلاغة في احتجاج الأسارى وحسن قول الموثقين والحيارى .

٦ ـ » » من ذوي الرجاحة في حسن البيان والفصاحة .

٧ ـ » » من ذوي الألباب في حسن المعارضات في الجواب .

٨ ـ » » من الأدباء في مخاطبة الخلفاء ومحاورة الأمراء .

٩ ـ » » في حسن الاعتذار وتجاوز ذوي المقدرة عن الاحرار .

١٠ ـ » » من البلغاء اللسن وطعنهم على النوكي اللكن .

١١ ـ » » في مكاتبات ذوي الألباب وتوقيعات السلطان وتهادى الكتاب .

١٢ ـ » » من الحكماء والصفح من أهل المقدرة عن السفهاء .

١٣ ـ » » من الخلائف الاموية ومأثوريتهم المرضية .

١٤ ـ » » » خلفاء بني هاشم والمأثور عنهم من الآداب والمكارم .

١٥ ـ » » » ذوي المآرب في حسن التعزية عن المصائب .

١٦ ـ » » ممن جمع بين تهنئة بعطية وبين تعزية برزية .

١٧ ـ » » فيمن يعزى عن مصيبته وحسن صبره في رزيته .

١٨ ـ باب البلاغة من وصايا المحتضرين ذوي الآراء والعقل الرصين .
١٩ ـ « » » العلماء في وصايا الأمراء .

هذه هي أبواب الجزء الأول من كتاب الفاضل ولبيان فائدة الكتاب أنقل الباب الثالث من هذا الجزء لاطلاع القراء على مزية هـذا السفر الجليل وعلو كعبه في البلاغـة والفصاحة اللتين تضمنتها لغتنا أم الضاد العربية مع العلم بأن هذا الباب من أقصر الأبواب في الكتاب المذكور .

الباب الثالث

— باب من أدركه الحصر في خطبته فأحسن العبارة في حجته —

روى ان عثمان بن عفان رضي الله عنه صعد المنبر فأرتج عليه فقال : أيها الناس سيجعل الله بعد عسر يسراً وبعد عي بياناً وانكم الى أمير فعّال أحوج منكم الى امام قوال . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم . واخبرني أحمد بن عبيد قال : أخبرني أبو عبيدة معمر بن المثنى ان خالد بن عبدالله القشيري ـ واظنه تصحيف «القسري» ـ صعد المنبر فارتج عليه فقال : أيها الناس ان هذا القول يجيء أحياناً ويذهب أحياناً فيتسبب عند مجيئه سببه ويعزب عند غروبه طلبه وربما كوثر فأبى وعولج فعصى . والترك لأبيه أفضل من التعاطي لمجيئه وتجاوزه عند تعذره أولى من طلبه عند تبرجه — أي تهوره — فقد يختلج على الجرى جنانه ويرتج على البليغ لسانه . ثم نزل عن منبره وهو أخطب من رأينا . ونمي إليّ ان ابا العباس امير المؤمنين القائم صعد المنبر فلما قال الحمد لله ارتج عليه فنزل ثم رقي المنبر فقال ايها الناس انما اللسان بضعة من الانسان يكل بكلاله إذا كلّ . وينفسح بانفساحه إذا أنفسح نحن امراء الكلام ومنا تفرعت فروعه وعلينا تهدلت غصونه — أي تدلت — ونزل فبلغ ذلك أبا جعفر المنصور فقال : لله هو . لو خطب بمثل مااعتذر

لكان اخطب العرب . وولى يزيد بن المهلب مولاه ثابت بن قطنة بعض الكور — وهي جمع المداين — فلما صعد المنبر ارتج عليه فنزل وهو يقول : فالا اكن خطيباً فانني ضروب بماضي الشفرتين صقيل - والشفرة بالفتح السكين العظيم - فبلغ ذلك يزيد فقال : لو قالها على المنبر لكان اخطب الناس. وبعض ما مرّ في هذا الباب ينفعك فأقنع ان شاء الله تعالى ».

وهذه أبواب وفصول الجزء الثاني من كتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل .

١ - باب البلاغة من ذوي الرشاد في حسن وصاية الأولاد .

٢ - « « » الآمراء ذوى السداد في وصايا الوكلاء والأجناد .

٣ - « « » الحكماء .

٤ - « « » الأعراب في شكوى الفقر وصفة الجدب .

٥ - « « « « في صفة القفار وصفة السحاب والأمطار .

٦ - « « « « في حسن السؤال وطلب المعروف والنوال .

٧ - « « « « في طلب الحاجات من الأحرار ذوي المروات والأقدار .

٨ - « « « « في مدح الرجال ووصف ذوي المروة والافضال .

٩ - « « « « في ذم الرجال وذكر ذوي الجهالة والضلال .

١٠ - « « « « في مدح قبائلهم ووصف قومهم وعشائرهم .

١١ - « « « « فيمن اخلصوا له الدعاء وطلبوا له العمر والبقاء .

١٢ - « « « « فيمن يدعو عليه لا ياسهم مما في يديه .

١٣ - « « « « فيما سئلوا عنه من اللذات وتخيل طيب العيش والشهوات .

١٤ - « « « « في صفة الأحباب .

١٥ - « « « « في الحكمة وسائر الآداب .

١٦ - « « « « في مواعظ الاخوان والأصحاب .

١٧ ـ باب البلاغة من الأعراب الأتقياء في حسن الابتهال والدعاء .
١٨ ـ « « « النساء ذوات الدراية والفصاحة .
١٩ ـ « « « « « المتأدبات في حسن وصايا البنين والبنات .
٢٠ ـ « « « « « في وفاتهن .
٢١ ـ « « « الاماء المتطرفات ومداعبتهن في الخلوات .
٢٢ ـ « « « الغلمان ونادر براعة الصبيان .
٢٣ ـ « « « الأكاسرة وحكماء الفرس والأساورة .
٢٤ ـ « « « العجم وما يؤثر عنهم من سائر الحكم .
٢٥ ـ « « « المجانين ومأثور حكم الموسوسين .

فيكون مجموع أبواب الجزئين (٤٤) بابا في مختلف المواضيع من البلاغة ونماذج الفصاحة من حكم وأقوال ومواعظ وارشادات وخطب وأشعار مما يفيد المطالع والقاريء والدارس والمتتبع والباحث في التأريخ والأدب . واتماماً لتنوير المطلع والقارىء انقل الباب الأول من الجزء الثاني من كتاب الفاضل هذا فهو خير نموذج على محتوى هذا الكتاب النفيس في ضروب البلاغة وأنواع الفصاحة في القول والموعظة .

الباب الأول من الجزء الثاني

— باب البلاغة من ذوى الرشاد في حسن وصاية الأولاد —

قال هشام بن الكلبي : جمع عبد الملك بن مروان بني امية فقال : يا بني امية ابذلوا نداكم وكفوا أذاكم واعفوا اذا قدرتم فانما العفو بعدالقدرة والثناء بعدالخبرة ولا تلحفوا ـ أي لا تلحوا ـ اذا سألتم ولا تبخلوا اذا سئلتم فان خير المال مال أفاد حمدا ونفى ذما ولا تقولوا كما يقول اللئام كان حجتهم اذا سئلوا أبداً بمن تعول انما الناس عيال الله وقد تكفل بأرزاقهم وجعل رزق بعضهم من بعض فمن ضيق ضيق الله عليه ومن أعطى خلف الله له .

يا بني مروان أحسابكم أحسابكم فما ضر قوم قيل فيهم بعد قول زهير وودت أن البيت قيل في قومي :ـ

على مكثريهم حق من يعتريهم　　　وعند المقلين السماحة والبذل

وما نفع قوما مدحوا به بعد قول الأعشى ما يسرني أنه قيل في قومي وان الدنيا لي بأسرها :ـ

يبيتون في المشتاء ملأ بطونهم　　　وجاراتهم غرثا (كذا) يبتن خمايصا ـ غرثى جياعا ـ

وقال الأصمعي : اخبرني ابن الزياد عن هشام بن عروة قال أوصى بنيه فقال : لا يهدين أحدكم الى ربه ما يستحيي أن يهديه الى كريمه فان الله أكرم الأكرمين وأحق من اختير له. يا بني تعلموا فان تكونوا صغار قوم فعسى أن تكونوا كبار آخرين وإذا رأيتم من رجل خلة رايعة من خير فلا تقطعوا أملكم منه وان كان عند الناس رجل سوء فان لها عنده أخوات واذا رأيتم من رجل خلة رايعة من شر فاحذروه وان كان عند الناس رجل صدق فان لها عنده أخوات ثم قال ان الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم . وقال سعد القصير لابنه : يا بني أوصيك بوصية ان لم تحفظها مني كنت جديراً أن تحفظها من غيري . يا بني أظهر اليأس فانه غنى واياك وطلب الحاجات فانه فقر حاضر وإذا صليت صلوة فصل صلوة مودع وأنت ترى أن لا تصلي بعدها أبداً . وان استطعت أن تكون غداً خيراً منك اليوم واليوم خيراً منك امس فافعل واياك وكل شيء يعتذر منه فانه لا يعتذر إلا من شر . وإياك أن تحزن على شيء آتاك الله خيراً منه . وقال ابن المقفع لابنه يا بني الصبر على كلمة تسمعها خير من الف كلمة تطلب التخليص منها فاكرم نفسك عما الخير في غيره . وقال منذر بن مالك لبنيه :ـ يا بني ألزموا الاناءة تفز قد حكم واغتنموا الفرصة تدركوا طلبتكم وأنشد :ـ

قد يدرك المتأني بعض حاجته　　　وقد يكون مع المستعجل الزلل

وربما فات بعض القوم أمرهم　　　مع التأني وكان الحزم لو عجلوا

وأوصى عمرو بن كلثوم بنيه فقال : يا بني ما عيرت أحداً قط بشيء الا عيرت بمثله إن حقاً فحقاً وأن باطلاً فباطلاً من سب سب كفوا عن الشتم فانه أسلم للأعراض أحسنوا جواركم بحسن ثنائكم وامنعوا ضيم الغريب والقريب فانك تذل على قريبك ولا تحمل بك ذل غريبك واذا حدثتم فعوا واذا حدثتم فأوجزوا فان مع الاكثار يكون الاهذار ـ أي سقط الكلام ـ ولا خير فيمن لا روية له مع الغضب ولا فيمن إذا عوتب لم يعتب وشر الناس من لا يرجى خيره ولا يتقي ضره . وقال المدايني : أراد ابن الاعرابية سفراً فقالت له أمه : يا بني انك تجاور الغرباء وترحل عن الأصدقاء ولعلك لا تلقى غير الأعداء فخالط الناس بالسير واتق الله في السر واستودعك الله وعليك السلام . وقال العتبي سمعت إعرابياً يوصي ابناً له وهو يقول يا بني ان لحقتك صعوبة امر فاستصعب له تنل مراكبه وتلن جوانبه وقارع الدهر عن أحداثه وأصبر لنوايبه لتعلم أنك من أقرانه . وسمعت اعرابياً يوصي ابناً له فقال : أي بني ان صحبة الرجال ذل وذل الصحبة أيسر من مضاضة الخلة فان دعتك اليها حاجة فاستكرم الصاحب وان صحبتك ولا محالة وأصارك الدهر الى مكروه ذلك فاحتجب بالصبر واستزد بالشكر . وأوصى إعرابي بنيه فقال : يا بني عاشروا الناس معاشرة ان غبتم عنهم حنوا اليكم وان متم بكوا عليكم . وهذا باب قد ذكرته في كتاب جليل وكلام طويل فاغنى ذلك عن التطويل فاعرفه ان شاء الله تعالى . » اه .

هذا غيض من فيض وقطر من بحر من هذا الأدب الراقي الجم الحافل بالمثل العليا والأقوال المثلى النافعة مما لا يستغنى عنه كل محب ومغرم في الأدب العربي ومكنوناته الفياضة وملحه الممتعة وبراعته الفائقة من حكماء العرب وشعرائهم وأدبائهم وناطقيهم سعة من هذه اللغة المضمخة بعطور الألفاظ وحسن التعبير وبلاغة الايجاز فبذت كل لغة في العالم بحلتها القشيبة وبيانها المعطار وحسنها الفتان .

يوسف يعقوب مسكوني